العولمة ومستقبل الصهيونية

د . محجوب عمر

مع مرور مائة عام على الاجتماع الأول للحركة الصهيونية العالمية ، واحتفال أنصارها المتبقين بهذه المناسبة ، وذلك فى ١٩٩٧/٨/٢٦، يلاحظ أن الاحتفال انتهى بندم دفين ، إذ اكتشفوا أنهم فتحوا على أنفسهم أبوابًا كان الكثيرون من اليهود يريدونها مغلقة ، وأثاروا باحتفالهم أسئلة كثيرة ، ليس فقط عن مستقبل الحركة الصهيونية ، بل وعن ماضيها ونشأتها وواقعها الحالى ، بلى وعن ماهيتها نفسها ، وهل هى فكرة أم برنامج سياسى أم كذبة وضلالة ، وقد نكتشف نحن أنه لولا اهتمام المفكرين والكتاب العرب باستعمال كلمة صهيونية ، وتعليق كل شىء على شماعتها ، لنسيها العالم ، وأنه لولا أن القيادة الفلسطينية والقيادات العربية لجأت فى عام ١٩٧٥ إلى استصدار قرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة بإدانة الصهيونية واعتبارها عنصرية ، مثلها مثل سياسة الابارتهايد فى جنوب إفريقيا ، ثم إلغاء هذا القرار فى عام ١٩٩٢ بمبادرة من الولايات المتحدة الأمريكية ، لكان الحديث عن الصهيونية قد غيبه النسيان ، حتى من جانب غلاة الإسرائيلين الصهاينة الحاليين .

لم يبق من صهيونية عام ١٨٩٧ إلا الاسم الذى ترفعه بعض الأحزاب والمؤسسات ، دون أن تمارسها كما تصوَّرها مؤسسها الحديث هرتزل ، اسم يحمله بضعة أفراد تتخطى أعمارهم الآن السبعين عامًا على الأقل ، ربما منهم « إسحاق شامير » وحده فى إسرائيل ، أما الباقون فقد رحلوا عن العالم ، أو رحلوا عن المسرح

السياسى ، أو بدلوا أفكارهم وبرامجهم السياسية مع احتفاظهم باللافتة الصهيونية ، إضافة إلى منظمات يهودية خارج إسرائيل تحتفظ بالاسم (الصهيونية) ، ولا علاقة لها بالنشأة ، ومع ذلك يصرون على وضع لافتة الصهيونية عليهم ، ربما للاحتفاظ بحق تنظيمى يسمح لهم - أى لهذه المنظمات - أن تشترك فى المؤتمر الصهيونى العالمى عند انعقاده السنوى - إذا انعقد -، وهو مؤتمر يختار أعضاؤه بالتنسيب بالاسم والعدد والمساهمة المالية طبعًا .

من أمثال هؤلاء الآخرين ، من يسمون أنفسهم باليسار الصهيونى الذى ليس فيه من الصهيونية الهرتزلية شىء ، كما أنه لا يحمل من اليسار بالمعنى الأوروبى إلا الرطانة والألوان . الصهاينة الأولون الآخرون انتهوا ، وخاصة بعد إعلان ما أصبح يسمى بدولة إسرائيل ، وقد كان بن جوريون محقًا عندما أعلن فى عام ١٩٤٨ أنه لم يعد هناك دور للمنظمة الصهيونية العالمية بعد إعلان دولة إسرائيل ، كما أن كثيرين غير بن جوريون لم يكونوا يرحبون باستمرار مؤسسات المنظمة الصهيونية العالمية ولا آليات اجتماعاتها السنوية الدولية ، لذا فقد يؤدى الحديث الآن من جانب العرب عن الصهيونية وحركتها من حيث لا نقصد - إلى التذكير بهذه الفكرة الميتة من جديد .

لقد ظهر تعبير الصهيونية وحركاتها قبل هرتزل ، وقبل مؤتمر بازل عام ١٨٩٧، أما صهيونية مؤتمر بازل فقد كانت تلفيقًا علمانيًا دينيًا ، استطاع هرتزل وأمثاله تقديمها بشكل تقبله الدول الغربية . وفى الوقت نفسه يستغل معاناة يهود شرق أوروبا ، ولم يحدث أبدًا فى تاريخ الحركة الصهيونية الطويل أن توحدت أفكارها وبرامجها السياسية ، وكان ما يسمى بالحركة الصهيونية منذ المؤتمر الأول

مجرد إطار أو لافتة تجمع جماعات يهودية أوروبية حاولت التوسع والامتداد إلى خارج أوروبا ، ورفضها أغلب اليهود فى الولايات المتحدة الأمريكية لفظًا وفعلًا ، ولم تنجح قبل الحرب العالمية الثانية فى إقامة أفرع لها لا فى آسيا ولا فى إفريقيا ، ولا فى أى بلد من بلدان الشرق ، رغم تشجيع الحلفاء الغربيين لليهود فى مستعمراتهم على تشكيل تنظيمات تابعة للأحزاب الصهيونية الكبرى ، كحزبى مابام ومابای أثناء الحرب العالمية الثانية ، لاستغلال موقف اليهود من ألمانيا النازية ، إلى جانب نشاط المخابرات الصهيونية فى تدبير تهجير بعض يهود البلدان العربية ، الذى لم ينجح كثيرًا إلا بعد حرب ٤٨ وحرب ٥٦.

كان إعلان دولة إسرائيل فى عام ١٩٤٨ هو تجسيد عملى لتقاطع الفكرة الصهيونية العنصرية العامة مع المصالح الاستعمارية العامة أيضًا ، فى ظروف لم يكن فيها العرب موحدين ، وقادرين على منع قيام هذه الدولة ، التى وإن ادّعت أنها دولة يهودية فإن مؤسسيها أكدوا أنها دولة علمانية غير دينية ، بل إن المتدينين اليهود الذين كانوا قد رفضوا فكرة الصهيونية من البداية ، عارضوا خطوة إعلان الدولة باعتبارها خطوة لا تتفق مع العقيدة اليهودية ، ثم قبلوا الاشتراك فى حكم الدولة والدفاع عنها بموازنة خطورة انتكاستها مع تعارضها مع وجهة النظر الدينية ، وفى إسرائيل ، كما فى الخارج ، ظلت الصهيونية كأفكار وسياسات تعيش داخل المعكسر العلمانى اليهود الأوروبى ، دون أن تتحدد أفكارها على الشكل الذى تحددت به مثلًا أفكار الماركسية والشيوعية والرأسمالية .

والناظر إلى إسرائيل الآن - والذى يفتش فى داخلها - لا يجد صهاينة كأولئك الذين اجتمعوا فى بازل منذ مائة عام ، لا كمفكرين ، ولا كسياسيين ، ولا

حتى منتمين إلى المنظمة الصهيونية العالمية ، فهذه الأخيرة عقدت مؤتمرها الثانى والخمسين فى القدس فى صيف عام ١٩٩٢ ، فبدأ كسرادق لتلقى العزاء ، وأن لا عزاء فيه لأغلبية يهود ، فهؤلاء قاطعوه عقيديًا ودينيًا ، كما قاطعوه منذ مطلع القرن ، وإن استمروا فى العالم أجمع بعد إعلان دولة إسرائيل يدافعون عنها ، البعض لكونها كانت حلمًا سياسيًا تحقق – وإن اختلفوا على الأفكار التى أقامتها – والبعض يدافع عنها لتوحدها مع اليهودية واليهود ، وخوفًا من أن تؤدى هزيمتها أو انهيارها إلى رد فعل معاد للسامية فى كل العالم ، وساعد على ذلك ، أن الخصم ، وهو العرب والمسلمون ، لم يفرقوا فى خطابهم السياسى بين إسرائيل واليهود والدين اليهودى .

إن الاحتفال الصهيونى بمرور مائة عام على مؤتمر بازل يكشف بالتأكيد أن الصهاينة المتبقين قد مضوا بعيدًا عن الطريق الذى تصوره هرتزل ، ورسمه زملاؤه الأولون . ويمكن أن نكتشف جميعًا بدراسات متأنية للكلمات التى ألقيت ، درجة التوزع والتمزق عند كل من يحملون لافتة الصهيونية ، وكثيرون منهم تنبهوا إلى ما قاله رئيس المؤتمر من نقد لفكرة هرتزل نفسه عن فلسطين .

ولعل الكثيرين فى العالم لا يعرفون أن القيادات الإسرائيلية لم تكن متحمسة كثيرًا لإلغاء قرار إدانة الصهيونية فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، فقد كانوا يتعاملون مع قرار الإدانة كالمتسول الذى يشحذ مدعيا أن يده مكسورة ، وعند فك الجبس تبين أن يده سليمة ولكن أصابعه المشوهة أصابع نشال ، إذ كان الصهاينة يخشون أن تستخدم المبادرة الأمريكية لالغاء قرار الأدانة كجزء من صفقة سياسية مع العرب ومع إسرائيل لتمرير الضمانات والقروض الأمريكية لإسرائيل .

ولكى يمكن الإجابة على السؤالين الخاصين بما حققته الحركة الصهيونية ومستقبلها ، من الضرورى الاتفاق على ما هو مقصود بعبارة الحركة الصهيونية ، وهل المقصود هو الصهيونية كفكرة ، أم الصهيونية كتنظيم ، أم هى المفاهيم الغامضة غير المحددة لما نطلق عليه نحن العرب كلمة الصهيونية .

وإذا كان المقصود هو الصهيونية كفكرة ، فهذه يمكن التسليم بأن الذين ابتدعوها قد نجحوا فى نشر اسمها ، بحيث أصبح غطاء شاملًا لعشرات الحركات السياسية ، ليس فقط بين اليهود فى العالم ، إنما أيضًا بين قسم من المذاهب المسيحية الحديثة ، وأحيانًا يتهم بها سياسيون غير يهود وغير مسيحيين بمعيار موقفهم من قضية وجود دولة يهودية ، وأحيانًا من قضية الموقف من فلسطين .

وليس هناك اتفاق على مضمون « فكرة » الصهيونية ، فقد كانت موجودة قبل أن يدعو لها « تيودور هرتزل » فى النصف الثانى من العقد الأخير من القرن الماضى ، بأشكال دينية وتنظيمية ، ولكن هرتزل نجح فى تنظيم الجمعيات الصهيونية المختلفة ، وتوجه إلى أثرياء الغرب (الاستعمارى) ، ودعا لعقد المؤتمر الصهيونى الأول فى مدينة بازل عام ١٨٩٧ ، وطرح فيه فكرته عن الدولة اليهودية ، وطرح فى ذلك المؤتمر آلية تضمن استمرار الشكل التنظيمى للحركة التى حملت الاسم ، قامت على أساس اجتماع مرة كل عام ، ثم بعد ذلك مرة كل عامين ، ثم اتسمت الاجتماعات بعدم الانتظام ، ثم عادت إلى الانتظام بعد إعلان دولة إسرائيل بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، وفى كل مرة كان هناك خلاف واختلاف حول عضوية هذا المؤتمر وكيفية اختيارها ، وكانت هذه الاختلافات دائمًا تكشف عن التناقض بين المجموعات اليهودية فى مختلف بلاد الغرب ونفوذها وقوتها عددًا

ومالًا ، وقد استمر انعقاد المؤتمر الصهيونى ولم يتوقف بعد ، على الرغم من أن أهميته تراجعت كثيرًا حتى أن بعض المعلقين ، بل والمشاركين فى المؤتمر الثانى والخمسين الذى انعقد فى القدس عام ١٩٩٢ - طالبوا بإعلان وفاة هذا الشكل من التنظيم .

ومع ذلك يمكن اعتبار أن كتاب هرتزل وعنوانه : « دولة اليهود » كان هو الأساس النظرى الدينى لفكرة الصهيونية ، كما أن النشاط الصهيونى اتفق فى سنواته الأولى على الأهداف التالية :

١- أن تتحقق صهيونية كل اليهود بإنهاء الرفض اليهودى نفسه للفكرة .

٢- أن تضم الدولة كافة اليهود ، من ثم تنتهى حالة الشتات .

٣- أن يتم طرد الموجودين من السكان العرب فى فلسطين ، وحشد اليهود هناك فى نقاء سكانى كامل .

٤- أن يتحقق الانسجام السكانى اليهودى نفسه بإلغاء أى تمايز عرقى فيما بينهم .

٥- أن تتطابق الخارطة الدينية مع الخارطة السياسية ، وبذلك تتطابق الفكرة مع القومية .

فإذا اعتبرنا أن المؤتمر الصهيونى الأول هو الذى حدد البرنامج العام الذى التزمت به كل المنظمات والمجموعات والأحزاب (الصهيونية) مع اختلافها وتناقضها فيما بينها - يمكن القول بأن الحركة الصهيونية العالمية قد أنجزت طوال تاريخها إنجازين أساسيين اثنين . الأول : هو استصدار وعد بلفور من حكومة

بريطانيا العظمى عام ١٩١٧. والثانى : هو إعلان دولة إسرائيل عام ١٩٤٨.

الإنجاز الأول ثبت فكرة دولة خاصة باليهود ، وهو ما لم يكن قائمًا من قبل ، وحدد مكانها وإن لم يحدد حدودها ، وسهل تدفق المهاجرين اليهود إلى أرض فلسطين ، ودعم قيام المؤسسات والمنظمات التى شكلت البناء التحتى للدولة العبرية قبل إعلان قيامها . لذا يمكن اعتبار إصدار وعد بلفور فى نوفمبر ١٩١٧، والدور الذى لعبته الزعامات الصهيونية فى استصداره إنجازًا سياسيًا تنظيميًا للحركة الصهيونية العالمية .

الإنجاز الثانى ، كان هو إعلان قيام دولة إسرائيل فى مايو ١٩٤٨، وهى خطوة أساسية وتاريخية ، ليس فقط فى تاريخ الحركة الصهيونية العالمية ؛ بل فى تاريخ العالم كله ، وما من شك أن الذين حققوا هذه الخطوة فى ذلك الظرف التاريخى وفى ظل موازين قوى ومصالح عالمية – هم القادة الصهاينة والمنظمة الصهيونية العالمية التى احتضنت الفكرة سياسيًا وعمليًا ، وبلغت بها درجة تجسيدها فى دولة ، ثم أخذت – أى المنظمة الصهيونية العالمية – تتراجع إلى المرتبة التالية ، حيث حلت دولة إسرائيل بمؤسساتها وسياساتها محلَّها ، وأصبح هناك سؤال حول من يقود من ؟ هل تقود المنظمةُ الصهيونية العالمية دولةَ إسرائيل المعلنة فى عام ١٩٤٨، والتى لا بد من مواصلة (النضال) لاستكمالها ؟ أم أن هذه الدولة هى التى تحكمت قيادتها فيما بعد فى حركة المنظمة الصهيونية ، والمنظمات الصهيونية المنتمية إليها فى العالم ؟

وقد أجاب الزمن على هذا السؤال ، ولم يعد أحد يسمع عن المنظمة الصهيونية العالمية إلا عند عقد مؤتمر سنوى ، وهى آلية لم تعد تطبق بانتظام .

لم يكن هناك أبدًا معنى واحدًا لكلمة صهيونية ، وقد توزعت عشرات المعانى والاتجاهات ، وبكل أسف أخطأنا نحن العرب عندما تغافلنا عن هذا الاختلاف الشديد ، عندما لم نتحدث باستمرار عن الأوجه العلمية لهذه الفكرة العنصرية ، واكتفينا باستعمال كلمة « صهيونية » مجردة ، ومن ثم ارتحنا كثيرًا لصدور قرار اعتبار الصهيونية عنصرية ، وهو القرار رقم ٣٣٧٩ بتاريخ ١٠/١١/١٩٧٥، واكتفينا بمقارنتها بسياسية الأبارتهيد فى جنوب إفريقيا ، دون أن نواصل إدانة الفكرة الصهيونية وإسرائيل عمليًا بالخروج على مواثيق حقوق الإنسان مثلًا . لذا فرضت أمريكا إلغاء قرار الإدانة السابق فى الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٩٢، بدا وكأن الصهيونية حصلت على حكم براءة تاريخى وعالمى ، كما بدا أننا ، نحن العرب – قد هزمنا بالضربة القاضية فى هذه المعركة ، مع أن كل ما قامت عليه الفكرة الصهيونية وممارساتها ما تزال مستمرة ، وهناك كثير من اليهود الذين ينتسبون للصهيونية على استعداد لإدانة هذه الممارسات العنصرية . أما إدانه الصهيونية كفكرة فقد اقتصرت على مجموعة من المفكرين والفلاسفة الغربيين ، ومنهم عدد غير قليل من اليهود دون الربط بين هذه الإدانة (الفكرية) وبين السياسية اليومية لتطبيقات فكرة الصهيونية .

ما تحقق من الصهيونية إذن هو استصدار وعد بلفور ومن بعد إعلان الدولة . وغير ذلك يمكن اعتباره من تفاصيل الحياة اليومية للظاهرة اليهودية ، وقد يدخل التاريخ سفرًا فى التلمود فيما بعد .

فما هو إذن مستقبل الصهيونية والحركة الصهيونية والمؤسسة الصهيونية إذا اعتبرنا إسرائيل هى الثمرة الأولى والأكبر لهذه الحركة ؟

تظهر التطورات أن الحركة الصهيونية العالمية آخذة فى التحلل والضعف تملؤها الخلافات الداخلية . وهى فى كل حال من الأحوال ، لم تعد تمتلك قوة الدفع التى كانت تمتلكها فى النصف الأول من هذا القرن ، ولا وحدة المواقف ، ولم يعد يجمعها لا فكر واحد ولا سياسة واحدة ولا موقف واحد إلا عندما تتعرض حكومة إسرائيل لضغط شديد من الولايات المتحدة الأمريكية ، أو من الدول الغربية الأخرى يعرض حريتها فى اتخاذ القرارات للخطر ، مما يرتب سوابق ضارة بمستقبل دولة إسرائيل ، أو كأن تخوض إسرائيل حربًا ضد العرب ، وهذا أمر قليل الحدوث ، ولكنه متوقع دائمًا .

الملاحظ هو أن ظاهرة دولة إسرائيل تكاد تكون منفصلة عمليًا عن ظاهرة الحركة الصهيونية العالمية ، ومستمرة بالانفصال . وذاك ينعكس داخل إسرائيل فى غياب القادة الأيديولوجيين والسياسيين الصهاينة الذين أنشاؤا الدولة وأثّروا فى مسارها من قبل ، وأخذت الدولة العبرية تتحول من صورتها الأولية فى مؤتمر بازل ١٨٧٩ إلى دولة أخرى أقرب إلى الدول الحديثة المعروفة بالدولة الأمة ذات المواطنة الإسرائيلية التى تختلف عن الهوية اليهودية التى تجمع يهود العالم خارج إسرائيل ، والتى تؤثر فيها عوامل مختلفة ، أهمها الإذابة والاندماج وغياب التاريخ المشترك ، هذه الحالة تكشف ضعف الحركة الصهيونية العالمية ، وتوجب إعادة النظر فى خطط مواجهتها ، بعد أن أصبحت مجرد لافتة لمساندة إسرائيل ، بلا مستقبل يرتبط بالحركة الفكرية السياسية نفسها .

الوضع الراهن يشهد انفصالًا تنظيميًا على الأقل بين (الدولة) التى حملت اسم إسرائيل ، والتى تعد من انجازات الحركة الصهيونية التى نشأت فى مطلع

القرن ، وبين المنظمة الأساسية التى أفرزت هذه الدولة ، وهى المؤتمر الصهيونى العالمى ، وبينما استمر المؤتمر يضم منظمات يهودية منتشرة فى أنحاء العالم ، وأساسًا من الولايات المتحدة الأمريكية فإن دولة إسرائيل على عكس ما كان هرتزل يدعو ويتوقع لم تضم أغلبية يهود العالم ، بل ولا حتى اليهود الصهيونيين فى العالم الذين تشهد صفوفهم خلافات وصراعات تزداد كلما تراجع الخطر الأمنى الذى تواجهه دولة إسرائيل ، كما أن هذه الحركات من الناحية العملية لم تعد مرتبطة (بدولة) إسرائيل ، ولا بمكونات هذه الدولة من أحزاب وجماعات سياسية باستثناء الهستدروت العالمى ، كما كان الحال قبل إعلان الدولة وانتشار فروع الأحزاب والمنظمات اليهودية الصهيونية فى عدد من البلدان .

ولقد كتب الدكتور قدرى حفنى ، وهو الأستاذ والخبير فى الدراسات الإسرائيلية والصهيونية ، ورقةً غير منشورة بيّن فيها كيف أن كل ما كتبه هرتزل فى كتابه « دولة اليهود » لم يتحقق على النحو الذى تداوله الصهيونيون الأوائل ، وأن قيام الدولة (إسرائيل) على أكتاف الصهاينة العلمانيين لم يؤد إلى القضاء تمامًا على الاتجاهات الصهيونية الأخرى السابقة على هرتزل ، مما أدى إلى استمرار الصراع بين الدين والدولة داخل إسرائيل ، وسمح الهيكل الليبرالى الغربى الخاص بالدولة المدنية ظاهريًا لإسرائيل باحتواء الصراع الفكرى والسياسى حتى الآن ، وقد عاد الصراع ليبرز مؤخرًا وبسبب الآليات الليبرالية ذاتها للدولة / الأمة ، كما أظهرت ذلك الانتخابات الأخيرة فى إسرائيل ، وكذلك اغتيال رابين وتزايد قوة الأحزاب والقوى الدينية غير العلمانية ، بحيث أصبح مطروحًا وبشدة السؤال عما إذا كانت إسرائيل هى دولة صهيونية ، أو دولة يهودية ، أو دولة لليهود أو دولة إسرائيلية ، وهو سؤال يحدد مشروعية المرجعية الفكرية لتلك الدولة ، بما يعنيه ذلك من تصورات لما

ينبغى أن تكون عليه علاقاتها بالتاريخ اليهودى ، وبسكانها غير اليهود ، وبيهود العالم ، وبالدول المجاورة وبالنظام العالمى .

الإجابة على هذا السؤال هامة لكى تحدَّد خطة العمل لمواجهة هذا الكيان ، ولقد جاء وقت استفادت القيادة الصهيونية فيه من الموقف العربى الذى يماهى بين الصهيونية واليهودية ، بحيث أصبح كل يهودى فى نظر العرب صهيونيًا ، والعكس بالعكس ، ثم نضج وتطور النضال العربى ضد إسرائيل ونجح الخطاب العربى السياسى فى الفصل بين كلمة يهودى وكلمة صهيونى . وعرفت المكتبة العربية كتبًا تناقش هذا الموضوع ، وكانت مفاجأة للكثيرين عند احتلال دولة إسرائيل لمدينة القدس العربية – أن وجدوا فى هذه المدينة وحولها يهودًا يعلنون أنهم ليسوا صهاينة ، بل هم معادون للصهيونية مثل جماعة ناتورای كارتا ، وذاع وانتشر الملصق الذى يصور يهوديًا تقليديًا متدينًا يمشى فى أحد شوارع القدس ووراء كتابة على الحائط تقول : « أنا يهودى وليس صهيونى » .

كان هذا التغيير فى الخطاب السياسى العربى هامًا وما يزال ، خاصة من الناحية الفكرية ، ومن ناحية التخطيط الاستراتيجى للمواجهة ضد إسرائيل . ومع ذلك لا بد أن نعترف أن الأمر ليس سهلًا ، فما يزال أغلب اليهود فى العالم يتجنبون انتقاد الصهيونية وحركتها ، إلا الراديكاليون السياسيون منهم ، الذين تصل معارضتهم لدولة إسرائيل إلى درجة القبول بتفكيكها سلميًا ، أو على الأقل إلزامها بالاعتراف بحقوق الشعب العربى الفلسطينى ومطالبه ، مع التأكيد على ضرورة ضمان أمن سكانها اليهود .

لن تقف القوى الصهيونية سواء تلك المتمثلة بدولة إسرائيل الحديثة ، أو القوى

اليهودية وغير اليهودية التى تراها ملجأ وحصنًا لليهود – لن تقف أمام هذا التغير دون أن تشن هجمات مضادة تدافع فيها عن الصهيونية كفكرة وكحركة ، ومن ثم تدافع فيها عن إسرائيل وتحميها ، ورغم أن المؤتمر الثانى والخمسين الذى عقد هذا العام ١٩٩٧ وجد من يرثى الصهيونية بالفعل عندما قال « إبراهام بورج » فى كلمته عند افتتاح المؤتمر : « إنه بعد هذه الأعوام الخمسين من عمر الدولة ، فإنه لا بد من الاعتراف بخطأ هرتزل عندما قال بأن فلسطين خالية من أى شعب ، وإن الصهيونية قد بنت على ذلك فكرة أن فلسطين هى أرض بلا شعب ، لذلك يجب أن تعطى للشعب الذى يريد أرضًا وهو اليهود » ، رغم هذا الاعتراف المبدئى والخطير من زعيم صهيونى ابن زعيم يهودى دينى من مؤسسى دولة إسرائيل والمتحدث أمام مؤتمر صهيونى عالمى ؛ فإن آلية المؤتمر الصهيونى ما تزال هى الجسر الهام الوحيد الذى يربط بين يهود إسرائيل ويهود الشتات .

ولعل ذلك هو الذى دفع النشاطات اليهودية والصهيونية لدعم قوة الفكرة الصهيونية بربطها بمقولة فكرية أوسع تتحدث عن الحضارة اليهودية المسيحية ، وتعتبر أن كل الحضارة الأوروبية والأمريكية – فيما بعد – الخاصة بالحرية وحقوق الإنسان والسوق الحرة والبرلمانية والليبرالية وما إلى ذلك هى حضارة يهودية مسيحية وذلك ما يمكن أن نعتبره تجديدًا خطيرًا لفكرة الصهيونية ذاتها .

إن الربط بين الصهيونية وبين المسيحية المترتب على الربط بين اليهودية والمسيحية كجوهر دينى مشترك ، ومستمر تاريخيًا للحضارة الغربية الغالبة ، يعنى إضافة قوة عالمية للحركة الصهيونية ، ووقف تدهورها الذى بدا واضحًا فى العقود الأخيرة ، لقد كان أمل هرتزل أن تقوم الصهيونية بدور الفكرة القومية للدين

اليهودى ، وكان ذلك فى زمن يشهد نشوء وصعود الدولة / الأمة ، أى عالم الدول القومية ، ومنذ البداية قدم هرتزل هذه الدولة التى أصبحت فيما بعد دولة إسرائيل كجسر للحضارة الأوروبية وحارس لها فى منطقة الشرق الأوسط ، ولكن الظروف العالمية تغيرت وهى تتغير ، بل وظروف اليهود أنفسهم تتتغير ولم يعد التوافق فى المصالح كاملًا إلا أن يعيش اليهود الصهاينة فى إطار هوية أوسع من الهوية اليهودية ، فاختاروا الهوية : الحضارة الغربية والمسيحية أساسًا .

ولقد تغيرت التركيبة السكانية داخليًا فى إسرائيل ولم يتحقق النقاء اليهودى كاملًا ، وتنبه حزب العمل الإسرائيلى إلى خطر هذا التحول الديموغرافى ، بوجود أقلية عربية كبيرة ، وفشلت عمليات الترانسفير ، وتزايدات نسبة الصابرا اليهود المولودين فى إسرائيل حتى بلغت أكثر من ٦٠٪ ، وهؤلاء يفتقدون التكوين التاريخى المزدوج الذى ميز يهود إسرائيل عند نشأة الدولة ، وربط ربطًا وثيقًا بين قيام الدولة وبين الانعتاق من ذكريات الاضطهاد الأوروبى النازى ، وما كان يجمع بين يهود إسرائيل ويهود أوروبا ، بل والحضارة والفكر الأوروبى ، ولعل هذه التغيرات فى التكوين اليهودى الداخلى هو الذى جعل مفكرى حزب العمل الصهيونى يفضلون الانسحاب من الأراضى العربية المحتلة عام ١٩٦٧ عن أى حل قد يؤدى إلى زيادة الأقلية العربية داخل الدول أى يفضل (الفصل) ، بينما استمر الصهاينة اليمينيون والمتدينون يفضلون (الضم) ، وشكل ذلك الأساس الفكرى لسياسات الشرق أوسطية .

عالميًا كان التغيير أكبر فقد اتجهت حركة اليهود المهاجرين فى العالم نحو ما يعرف بالعالم الحر ، أى أمريكا وشمالها وجنوبها ، وزادت نسبة الاندماج اليهودى

فى تلك المجتمعات ، وبرزوا فى مجالات المال والإعلام والعلوم ، وكثيرون منهم لم يعودوا يفضلون حتى الذهاب إلى إسرائيل للزيارة ، مما كشف نفاذ مخزون الهجرة اليهودية ، ومع استمرار مواجهة إسرائيل عربيًا بشكل عام ، وفلسطينيًا بشكل خاص زادت عوامل تشكيل الهوية الإسرائيلية المتميزة فى مواجهة الدور الدينى (اليهودى) ، أو الدور العالمى (الارتباط بالمجتمع الدولى) ، ناهيكم بالطبع عن التعامل مع المحيط العربى ، وأصبحت النتيجة الآن أن أمامنا عدة حقائق أساسية رصدها الدكتور قدرى حفنى فى ورقته المشار إليها ، هى :

١- أن الرباط التقليدى الوثيق بين يهود العالم أصابه وهن شديد .

٢- أنه قد تم التراجع (علنًا) محليًا وعالميًا عن فكرة إسرائيل الكبرى أرض الميعاد .

٣- أن الأمل فى ضم إسرائيل لكافة أو حتى غالبية يهود العالم لم يعد واردًا .

٤- أن الحديث عن دولة يهودية نقية سكانيًا لم يعد واردًا .

٥- أن الظروف الدولية التى كانت تعطى لإسرائيل مكانة تقليدية مطلوبة فى الغرب ، ومن أمريكا بالذات قد تغيرت تغيرًا أساسيًا بانتهاء الحرب الباردة والمواجهة مع الاتحاد السوفيتى .

لا يعنى ذلك أن الصهيونية كفكرة قد انتهت ، ونحن نشهد منذ سنوات نظريات عالمية جديدة ، سواء منها التى رددها « فوكوياما » عن نهاية التاريخ ، أى سيادة الفكر الليبرالى الغربى ، أو تلك التى يرددها « هنتجتون » عن الصدام بين الحضارات ، وقد التقط عدد غير قليل من المفكرين الغربيين ، وكثير منهم يهود -

هذه الأفكار الجديدة ، وصاغوا نظرية جديدة عن الحضارة اليهودية المسيحية ، واعتبروها مصدر الحضارة الغربية كلها .

وهو توجه قد يؤدى من ناحية إلى انتشار الأفكار الخاصة بالمؤامرة اليهودية للسيطرة على العالم ، ومن ناحية أخرى سيؤدى بالتأكيد إلى تراجع الفكرة الصهيونية كفكرة يهودية ، لتتحول إلى فكرة يهودية مسيحية ، ثم بعد ذلك إلى فكرة مسيحية غالبة قد تفرز لاسامية جديدة تشبه اللاسامية الأوروبية السابقة ، التى هرب منها اليهود فى مطلع القرن .

الصهيونية الحديثة فى كلمات : هى محاولة برجماتية لتحويل العقيدة اليهودية إلى قومية على النمط الحديث ، وذلك ما جعل الحركة الصهيونية منذ بدايتها تتنوع اتجاهاتها وتتعدد وتتلون بلون المجموعة أو الفريق الذى يدعو لها ، مما جعل هذه الأفكار تبدو غير ثابتة ومتغيرة باستمرار . ذلك أن الهدف كان وما يزال هو إقامة دولة حديثة على النمط القومى أو السائد عالميًا . وقد سمح الشكل الليبرالى البرلمانى الغربى لتعدد الأحزاب وبناء هياكل الحكم باحتواء الخلافات السياسية / العقيدية كما أسلفنا ، ولكن التناقض بين العلمانية الليبرالية للدولة وبين الخلافات العقائدية الدينية التى يتمسك فيها كل فريق بتصوره الدينى – ظل كامنًا فى هذا الإطار منذ قيامه . وهو يزداد مع زيادة دور القوى الدينية فى إسرائيل ، ويتضح ذلك بجلاء عند قراءة نتائج انتخابات الكنيست منذ الدورة الحادية عشرة حتى الآن ، إذ يتبين أن الطيف السياسى الانتخابى يتجه إلى التطرف على الجانبين يسارًا بفكر علمانى ، ويمينًا بفكر دينى وعنصرى .

ومع استمرار التمسك بكلمة الصهيونية ، مع تمسك كل فريق وحزب بمعانيه

الخاصة بها لم يكن أمام المتمسكين بهذه الفكرة / الحركة إلا أن يستمروا فى التحريف والتطوير البراجماتى للأفكار الأولى ، وحتى وصل الأمر إلى الحديث عن الحضارة اليهودية المسيحية ، وظهور كتابات حول المسيحية الصهيونية تجد لها بين فريق من المسيحيين من يبررها مذهبيًا بالاستناد إلى العهد القديم ، الذى يعتبره المسيحيون كتابًا جاء المسيح ليكمله لا لينقضه ، وبقى الاختلاف حول مسئولية اليهود عن صلب المسيح ، وهو ما تحاول الجماعات اليهودية والصهيونية الحصول على صك براءة من البابا وغيره .

إن فكرة الصهيونية المسيحية باعتبارها التعبير الحديث عما يسمى بالحضارة اليهودية المسيحية – تخدم إلى حد بعيد ، ولعلها تلتقى وتتقاطع ؛ مع فكرة العولمة أو الكوننة التى تتحدث عن تحول العالم كله إلى قرية واحدة ، وتحول الاقتصاد فى هذا العالم إلى اقتصاد المعلوماتية والمال والتجارة الحرة ، والناظر إلى المنظمات المتعددة الجنسيات فى العالم وإلى المجموعات الأمريكية داخل الولايات المتحدة حيث تنشط المجموعات اليهودية الأمريكية فى تشكيل مجموعات ضغط تؤيد إسرائيل والصهيونية ، يمكنه أن يتبين أن هذه المجموعات الصهيونية السياسية تؤثر وتتأثر بفكرة العولمة أو الكونية الحديثة ، وتتقاطع على مستويات مختلفة مع أفكار « هنتجتون » عن صراع الحضارات ، ولا شك أن المستفيدين من بقاء فكرة الصهيونية وحركتها قائمة ، وخاصة الذين يراهنون على دورها فى حماية إسرائيل ، يشجعون ويروجون تحويل الفكرة الصهيونية وحركتها من ظاهرة محدودة باليهود إلى ظاهرة كونية لها مستقبل أطول كثيرًا من مستقبل الدولة / الأمة ، وأمامها فرص أوسع اقتصاديًا وفكريًا دون أن يعوقها تاريخ سابق وتناقضات موروثة نشأت وتنشأ من الصراعات بين الدول القومية .

وهكذا تمضى الصهيونية من فكرة نشأت فى التاريخ القديم لليهود إلى فكرة حديثة ذات طابع قومى ، إلى فكرة تعمل على الاندماج فى الأطر العالمية ، وتعتمد على التحالف المزعوم بين اليهودية والمسيحية فى تفسير الحضارات القائمة .

ويظل للفكرة الصهيونية طابعها البراجماتى الذى يسمح لها بالارتباط بالمتغيرات الحالية والمستقبلية ، ويجعل من الصعب الحديث عن مستقبلها دون الحديث عن مستقبل العولمة .

معهد البحوث والدراسات العربية
عضو اتحاد الجامعات العربية

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

أ . د . إسماعيل صبرى عبد اللّه :

نحن أمام عرضين جيدين ، تجمع بينهما النظرة للحركة الصهيونية وإسرائيل من الداخل ، ومحاولة الكشف عن جوانب القوة والضعف ، وفى الواقع ، نحن أهملنا مطولًا دراسة ما يجرى فى إسرائيل ، وفى الحركة الصهيونية على المستوى العالمى .

من المعروف أن الحركة الصهيونية قد نشأت فى أوروبا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . علينا عدم إغفال هذا الواقع التاريخى . فهى بدأت فى أوروبا ، وذلك فى أوج صعود الرأسمالية وظاهرة الإمبريالية . وقد كانت هذه الحركة اختيارًا متميزًا عن اتجاهين كانا سائدين فى أوروبا : اتجاه الرأسمالية الحرة . وكان يتمثل فى معاملة اليهود على قدم المساواة مع بقية المواطنين ، ومنحهم حقوق المواطنة الكاملة . هذا الأمر تم تقنينه فى فرنسا ، حيث صدر إعطاء حقوق المواطنة لليهود بقانون « كريميو » ، وذلك داخل فرنسا والأماكن التى تسيطر عليها فى الجزائر .

وبهذا الصدد ، يمكن الإشارة إلى أن اليهود استفادوا أيضًا من النزعة العلمانية فى فرنسا ، ومن فصل الدولة عن الكنيسة ، ومعركة الدولة ضد الكنيسة الكاثوليكية ، وتحريم تدريس الدين فى المدارس الحكومية ، ومنع رجال الدين من شغل مناصب التدريس .

لقد كان هذا المناخ ملائمًا لليهود كى يصبحوا مواطنين فرنسيين بالكامل . أما فى إنجلترا ، فقد كان الأمر مختلفًا وعلى سبيل المثال ، تم انتخاب أحد اليهود فى عضوية مجلس العموم ، وقد رفض أن يقسم على الكتاب المقدس ، فتغير القانون

البريطانى من أجله ، وأصبحت القاعدة هى الحلف بالشرف ، وليس على الكتاب المقدس . وفى عام ١٨٧٠ ، تولى منصب حاكم إنجلترا الفعلى وهو رئيس الوزراء . وهو الذى أتم صفقة قناة السويس الشهيرة .

إذن ، قدمت أوروبا الغربية نموذج المواطنة الكاملة ، ولم تفرق بين اليهود وغيرهم . وفى ذلك ، قال ماركس مقولته الشهيرة : « لقد انتهت المشكلة اليهودية ؛ لأن أوروبا الغربية أصبحت يهودية » . على أساس أن اليهود كان لهم ملجؤهم الأساسى فى فترات التمييز ضدهم : التجارة والمال ، فمادام المجتمع كله يقوم على رأس المال ، فقد أصبح المجتمع يهوديًا .

هذا ما كان يجرى فى غرب أوروبا ، أما الصورة فى شرق أوروبا فقدمت اتجاهًا آخر ، كانت صورة مختلفة ، حيث لم تنجح الثورة البرجوازية ، ولم يحدث هذا التغيير الفكرى والتنوير والمساواة وفكرة المواطنة ... إلخ . كانت هناك كتلة أساسية من اليهود الأوروبيين من الناحية العددية ، وكانت هذه الكتلة تتركز فى مناطق ، يمثل اليهود فى بعضها أغلبية ، وكانت لهم لغة خاصة بهم ، ليست العبرية ولا الألمانية أو الروسية ، ولكن « اليديشية » . وقد كتب بها شيء من الأدب ، حتى أن أحد الكتاب حصل على جائزة نوبل عن دراسة كتبها باليديشية .

لقد عرض على يهود شرق أوروبا البديل الاشتراكى ، إلا أن اليهود قد رفضوا هذا البديل ، وكونوا مع بقية المضطهدين الرابطة اليهودية . وكانوا أول من هاجر إلى فلسطين ، وهم هاجروا فى مرحلة سادها خلط عميق بين فكرة التحرر القومى وبين الفكرة الاجتماعية ، وهم الذين أسسوا « الكيبوتس » على هذا الأساس ؛ لأن هذا الشكل المتقدم من الملكية يليق بشعب اللّه المختار أكثر من غيره من الشعوب .

ومعروف عن هؤلاء أنهم يقدسون العمل فى الأرض على أساس أن أرض إسرائيل يجب أن تزرعها أيادٍ إسرائيلية ، وهم ينظرون إلى ذلك على أنه نوع من العبادة .

ويضاف إلى ذلك ؛ أن الحركة الصهيونية أخذت طريقًا ثالثًا ، هو أنها اعتبرت نفسها أمة وقومية بلغة عصر القوميات . عصر توحيد ألمانيا وإيطاليا ، وفكرة الدولة القومية Nation State. فهم أخذوا موقفًا قوميًا أوروبيًا ، بمعنى إزدراء القوميات الأخرى لدى باقى الشعوب . وهذا ما يسمى بتمركز أوروبا حول الذات ، ولهذا الأمر تأثيراته حتى الآن ، على رغم التقدم الذى تم إنجازه .

كان من الطبيعى أن يسلك اليهود طريق غيرهم من المضطهدين الأوروبيين لأسباب دينية أو غيرها ، وهناك من هاجر إلى العالم الجديد لينشئ جماعات خاصة باليهود ، ويمارسون الدين كيفما يشاءون . وقد كان هذا الاتجاه جزءًا من الحض على الهجرة ، إلى ما يسمى بالعالم الجديد وانتزاعه من أهله ، ويلاحظ أن هؤلاء كانوا يعتبرون عبودية الأفارقة أمرًا طبيعيًا ، وحين قال هرتزل : إن أرض فلسطين هى No man's Land، فإنه ردد عبارة كانت تطلق فى أوروبا على كل بقعة من الأرض لم يرتفع عليها علم أوروبى .

بهذا الشكل ، نحن نواجه بالفعل بفكر قومى من الطراز الأوروبى ، ينظر لسكان العالم الآخرين ، نظرة دونية دائمًا ، وما لا يمكن تنفيذه فى أوروبا يمكن تنفيذه خارجها ، وبهذا الخصوص ، تجدر الإشارة إلى أن كل فكرة قومية بحاجة إلى أسطورة ، وقد استعان هؤلاء اليهود بالدين اليهودى ، وبنصوص العهد القديم ، تمامًا كما ادعت القوميات الأوروبية أنها وريثة الحضارة اليونانية والرومانية .

لم يكن التعصب القومى والادعاء بالتفوق على الآخرين متهجًا فقط إلى

شعوب العالم الثالث ، بل أن الأمر طبق بين الأوروبين أنفسهم ، فألمانيا اعتبرت أنها الأهم ، وكذا فرنسا وبريطانيا ، واندلعت بين هذه الدول حروب على هذا الأساس ، ومن هذا المنطلق ، لكن فهم جوهر الموقف الصهيونى كموقف قومى متعصب يؤمن أن اليهود قومية واحدة ، مع عدم الاعتراف بكل التأثيرات الثقافية التى حملها اليهود من المهجر ، ويعتبر هذا الموقف أن الأمة اليهودية متفوقة على غيرها من الأمم .

أود أن أشير إلى واقعة ، هى أن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، كان قد أحدث ثورة داخل المجتمع الصهيونى العالمى بطرحه فكرة دولة دينية عبرية أو يهودية منزوعة السلاح .. ومحايدة ، مضمون استقلالها من كل دول العالم ، تمامًا بما يشبه الفاتيكان بشكل أكبر .

ومن وجهة نظرى ، فإن الصهيونية لم تنته ، بل هى موجودة ولديها القدرة على التكيف مع الزمان .

المناقشات

طرحت المناقشات والمداخلات الأفكار التالية :

١- من الملاحظ أن الصهيونية تمكنت من استقطاب تعاطف مسيحى كبير ، فهل يعنى ذلك انتهاء الصراع القديم بين اليهودية والمسيحية ؟ قد يتعين علينا فى هذا الإطار أن نتيقظ للمكاسب التى تحققها الصهيونية من ظاهرة كهذه .

٢- فشلت الحركة الصهيونية حتى الآن فى نفى الآخر ، الفلسطينى العربى ، وهو جزء من أمة كبيرة لها جذورها وتاريخها الممتد ، ومع ذلك ، علينا أن نلاحظ

دور اللوبى الصهيونى فى توجيه سياسات الغرب الإمبريالى ، وأن هذه المسألة ترتبط مستقبلًا بقضية العولمة وما يعرف بما بعد الصهيونية ، وهنا ثمة احتمال ؛ لأن تتحالف الصهيونية مع الإمبريالية فى سياق الرغبة المشتركة لتفتيت هذه الأمة .

٣- هناك وجهات نظر تهون من شأن اللوبى الصهيونى وتأثيره على السياسية الأمريكية تجاه الصراع الصهيونى العربى والقضية الفلسطينية ، باعتبار أن للولايات المتحدة مصالحها ، وأن قراراتها نابعة من هذه المصالح ، غير أن هذه الرؤية تنطوى على صحة نسبية فقط ؛ لأن السؤال يدور عن حجم هذا اللوبى وإمكاناته ، ففى حقيقة الأمر ، يتجاوز هذا اللوبى حجم الجالية اليهودية ، إلى قطاع ضخم من المجتمع المسيحى الأمريكى ، الذى يعرف بالصهيونية المسيحية ، وهو قطاع كبير لديه إمكانات مادية وتأثيرات ثقافية واسعة النطاق ، ويثير هذا الجانب عمومًا ما يعرف بالأبعاد غير المادية للتحالف الصهيونى - الغربى .

٤- من الصحيح أن الحركة الصهيونية أخفقت فى بعض الممارسات ، وامتنعت عليها بعض الأهداف ، غير أننا مطالبون بالتعرف على حجم الإخفاق العربى فى التعامل مع هذه الحركة فى الماضى ، وكيف يمكن درء هذا الإخفاق فى المستقبل .

٥- مازال الفكر العربى ينكر على إسرائيل صفة الدول القومية ، ولديه مبررات قوية لهذا الإنكار ، غير أن السؤال الذى يفترض أن يطرح هو : هل يمكن لإسرائيل أن تتحول إلى دولة قومية ؟ هل يمكن أن تنشأ بمرور الوقت قومية إسرائيل ؟ وعندئذٍ ماذا عن التعامل العربى مع هذه الدولة بصغيتها المعدلة ؟ علمًا بأن القومية ليست قدرًا منزلًا بعوامل غير تاريخية ، وإنما هى أمر يمكن أن يضعه البشر .

٦- من المسائل التى تحتاج إلى اهتمام عربى أكبر .. مسألة تغير الطبيعة السكانية فى إسرائيل ، من حيث التركيب العمرى ومستوى الكفاءات العلمية .. فهناك دراسات تشير إلى وجود هجرة من إسرائيل باتجاه الولايات المتحدة . تصل التقديرات بهذا العدد إلى نحو ٤٠٠٠ مهاجر سنويًا ، وثمة معلومات أخرى عن رغبة بعض المهاجرين إلى أمريكا فى الحصول على البطاقة الخضراء ثم الجنسية الأمريكية . وعادة ما ينتمى هؤلاء إلى اليهود الأوروبيين (الإشكناز) ، أصحاب الكفاءات العلمية العالية ؛ لأن سوق الولايات المتحدة أكبر من السوق الإسرائيلى ، فضلًا عن توفر إمكانات أكبر فى أمريكا للبحث العلمى والعائد المادى .

وبخصوص الهجرة إلى إسرائيل ، هناك اتجاه قائم يتمثل فى « عودة » كبار السن من اليهود ، بهدف قضاء خريف العمر فى « الأراضى المقدسة » ، والموت والدفن بها ، وينتمى هذا الاتجاه إلى الحد الأدنى من تعلق اليهود بالأراضى المقدسة ، ومن الحالات الممثلة لذلك ما فعله « روبرت ماكسويل » البريطانى الجنسية ، الذى كان يعد فى بريطانيا إمبراطورًا للإعلام ، وكان يؤخذ برأيه فى مجلس العموم ، وناقدًا فى جامعة أكسفورد ، فعند وفاته ، وجد فى وصيته أن يدفن فى القدس .

ويلاحظ أن يهود العالم كلهم يساعدون إسرائيل حاليًا ، إلا أن هذه المساعدة ليست على شكل استثمارات ، وذلك لأن سوق إسرائيل ضيقة وغير جذابة للاستثمارات ، ومن هنا ، كان مشروع « شيمون بيريس » عن الشرق الأوسط الجديد ، فقد أراد من هذا المشروع التكاملى أن يجعل إسرائيل محور دول المنطقة .

٧- يمكن الحديث عن تنافس حقيقى بين مصر وإسرائيل ، ففلسطين تاريخيًا

جزء من الأمن القومى المصرى ، والدولتان فى منطقة لا تحتمل قوتين متقدمتين معًا ، ولذلك ، على مصر أن تكون فى قلب الخيار الوحدوى التكاملى الاقتصادى بين الدول العربية . وذلك بحكم ثقلها متعدد الأبعاد .. وإلا سنواجه بعصر الهيمنة الإسرائيلية على المنطقة العربية ، وفى كل الأحوال ، لن يقبل اليهود بمجرد حارة فى هذه المنطقة ؛ لأنهم لن يقبلوا العزل والتهميش .

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية

جامعة الدول العربية
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية